شهرية الفن

تصاوير أطفال

ماذا علىّ إن قلت لك إنى أصبحت اقصد إلى معارض الفن فى مصر ، ولا سيما المعرض السنوى أيام الربيع ، وأنا كاره مكره . أما أنى مكره فلأنى لا بد لى ، من جهة المبدأ ، أن أتابع القرائح وأساير المنازع ؛ وأما أنى كاره فلأنى لا أجد فى تلك المعارض شيئاً يأخذنى أو ينبئنى بأن مصوراً نبغ وأن فناناً جمع لمحات لمخيلته وشق مسالك لريشته . وليس فى تلك المعارض ما يخرج عن المستوى السائد ، وهو مستوى متناقل . أجل ! إنك لتصيب معرفة بأصول الرسم ، وبصراً ببسط الألوان ، ودقة فى محاكاة الواقع . ولكنك لا يهتز شعورك لمعنى دفين ، ولا يسرح خيالك مع رؤيا من الرؤى الشوارد ، ولا يدهش عقلك إزاء طريفة من طرائف الأسلوب . حتى المبرزون من المصورين — ولا يزيدون على أربعة أو خمسة — تراهم اليوم كأنهم ثابتون حيث ابتدأوا ، والثبوت فى الفن من هرب القريحة وجمود الشخصية .

إن صناعة التصوير عندنا فى أول نشأتها ، وليس لها تقليد ترجع إليه أو تعول عليه . ومن هنا ضعفها . وهنالك سبب آخر أبعد خطراً وأشد فعلا ، وإن لم يعالج شأنه ظل التصوير عندنا فاتراً او ساقطاً . وهذا السبب يتلخص فى طغيان « القواعد » على « القرائح » أى فى غلبة الأصول الموضوعة للرسم والتصوير على لطائف الاحساس ولوامع المخيلة تعقبهما وثبات الريشة على الورقة أو اللوح .

هذا الطغيان وتلك الغلبة لم أجدهما فى معرض مستطرف حقاً ، هو معرض تلاميذ المدارس الأولية وتلميذاتها فى الاسكندرية وهو المعرض الأول من نوعه ، دام من اليوم العشرين إلى الثلاثين لشهر يونيه من هذه السنة .

سأقنى إلى هذا المعرض الصديق المصور البارع محمود بك سعيد ، ولولا اطمئنانى إلى ذوقه ما ذهبت ؛ فقد كانت نفسى تحدثنى أنى سأشاهد تطبيقات لـ « علم الرسم » فشدما دهشت حين تصفحت التصاوير وفرزتها ! ذهبت إلى المعرض مرة وثانية وثالثة لأستمتع بالطرافة والطراءة . فقد أصبت تمثيلات قد أفلتت من قيود الأصول المحكمة وتخييلات نجت من الأوضاع المضبوطة . وجدت نفسى بين يدى الغريزة الطافرة والخاطر المبتكر ؛ وإنما هذا باعث الفن وتلك مادته (أنظر شكل ١ ، ٢ ، ٣) (١)

سيثور بعض القراء ، وبخاصة من له إقبال على التصوير أو به انعطاف إلى الفن ، فيقول : ألم تر إلى هذه الأخطاء البديهية فى التخطيط والتجسيم ! أو لم تفطن للجهل بمبادئ « المناظرة » ! ثم كيف أعجبتك هذه الوسوسات والتعثات extravagances وهذه التلفيقات والمتناكرات incohérences ؟ إنما أولئك صبية يعبثون ويمخرقون .

كلا ! ماهم بالعابثين ولا بالممخرقين . هم يرقمون على الورق ما يدور لهم من اللوائح

(١) صورها بالفوتوغرافية الاستاذ على رشا . ولقد التقى الصورة الثانية محمود بك سعيد ، والصورة الثالثة السيد زهار ، والصورة الأولى صاحب المقال .

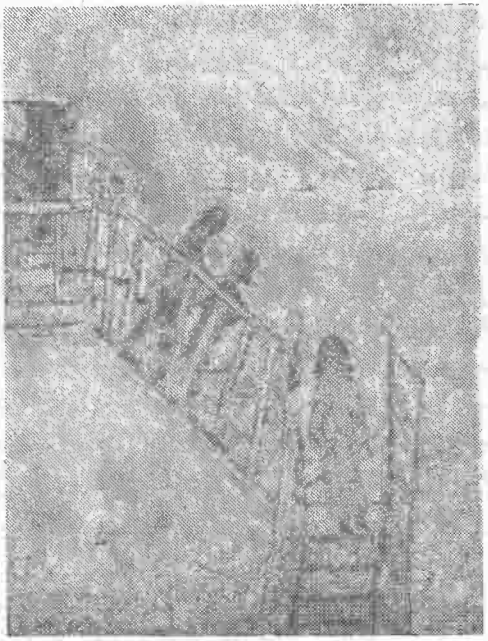

شكل ١ : زيارة
فى معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية
فى الاسكندرية (١٩٤٦)

والأفكار ، ولا تضييق من جهة الخط الذى يجب أن يكون مستويا ، والنقل الذى ينبغى له أن يكون أمينا ، والأسلوب الذى لا يقوم إلا إذا أحكم ، والصبغ الذى لا يحسن إلا إذا فنن . هم على بداهتهم وسذاجتهم primitifs ومن هنا ظرافة تفكيرهم وطرافة تعبيرهم ، ومن هنا ، قبل كل شىء ، تلك الشخصية النقية التى كأنها تقفز من مطاوى الصورة . وهل ننسى أن من هذه الصفات ما أنال التصاوير الاسلامية العربية شهرتها ؟ وهى التصاوير المنسوبة إلى مدرسة بغداد ، والتى بها تتحلى مخطوطات من مقامات الحريرى وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الأغانى وغيرها ، مبثوثة هنا وهناك فى المتاحف والخزانات الوطنية .

هل أخبر المعرض أن أعلاما من التصوير الغربى الحديث جعلوا همهم الرجوع إلى البداهة والسذاجة ؟ حسبى أن أذكر ثلاثة لا يجهلهم أحد ممن له اطلاع على مناحى التصوير ؛ أذكر هنرى ماتيس Henri Matisse الفرنسى ، وراؤل دوفى Raoul Dufy الفرنسى ، ومارك شاجال Marc Chagall الروسى اليهودى : أما ماتيس (أنظر شكل ٤) فقد عدل عن التعاليم الجافة l'académisme وركض يبحث عن الفطرة يستردها حتى نجا مما هو متسق وبلغ ما هو بسيط ، فاستطاع أن يهمل الطوارئ والاضافات ليقبض على الجوهر الخفى والمعنى الخالص . وأما دوفى فنبذ المهلرة إيثاراً لطريقة الجهلة بقواعد الرسم ، حتى إنه كان يخطط بيده اليسرى ، وكان لا يعبأ بمطابقة المواقع ؛ إذ كان يقول : « ما الطبيعة سوى افتراض » . وأما شاجال (أنظر شكل ٥) فهو المنطلق من الدنيا التى نضرب فى جنباتها إلى علم موهوم كله رؤى فيها الغريب وفيها الشاذ ، لا يحبسها العقل فلا يدركها ، ولكن يتفهمها الاحساس الفياض .

هؤلاء الثلاثة وأمثالهم يلتقون بالأطفال على وجه العموم فى ميدان البساطة الفطرية وإهمال الواقع والشرود مع الخاطر (وازن رقم ٢ برقم ٤ ورقم ٣ برقم ٥) .

بقى أن أقول كلمة فى مذهب هذه التصاوير ، فلتكن مختصرة حتى أعود إليها فى بحث طويل : لا أشك بعد التأمل والتبصر أن هؤلاء الأطفال عمدوا من طريق الوراثة وبفضل البديهة إلى الأسلوب الشرقى فى التمثيل . وهذا الأسلوب نشأ منذ القرون المسيحية الأولى فى سورية والعراق وفلسطين ، ومنها امتد إلى آسيا الوسطى من جهة وإلى مصر من جهة أخرى حيث زحم المذهب الهلينى . وأول مظهر

لهذا الأسلوب تلك التصاوير التى كانت تعلو جدران الكنائس فى فلسطين والعراق وصحراء لوبيا ، ومثل التزاويق التى تضمها أناجيل ومزامير مخطوطة فى الديارات العراقية والشامية والمصرية . وقوام هذا الأسلوب — فى الجملة — التعبير القصصى narratif الذى يعنيه ما فى النفس من مجاهدات dramatique ثم التأليف الذى لا يبالى بالمطابقة والتشاكل assymétrique .

وبعد فلا يسعنا إلا أن نشكر للذين قاموا بهذا المعرض اللطيف تلك المتعة التى هيأوها لنا ، وأن نهنئ التلاميذ والتلميذات ونهنئ معلميهم . وإنى لأرجو من هؤلاء ألا يذهبوا بطراءة أولئك الصبية ، وألا يحدوا من قرائحهم ، ويبطئوا من خواطرهم ، وهم يلقنونهم الأصول والقواعد . بل يحسن بهم ان يتركوا للبديهة ، سواء كانت واعية أو غافية ، منافذها ومسالكها بل مقافزها ، حتى يخرج إلينا بعد حين أصحاب فن حى طريف مستمد من تقاليد بلدية . ولن نبالى إذن هل هو سار على نظام المرئيات موافق لتفاصيلها ، وهل هو محكم السبك متشاكل الأجزاء . فليس من هم الفن الصحيح محاكاة الواقع ولا تنسيق الحياة . ومن ذا الذى يستطيع أن ينسق الحياة وكلها اضطراب ! وأما الواقع فمظهر يحف به الشك .

بشر فارس

ملاحظة

تجد الأشكال ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥
فى الورقتين الملصقولتين فى هذا العدد